﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصّف: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّسلية والتَّحذير أسلوبٌ قرآنيٌّ ليس له نظير

لمّا ذكرَ المولى تعالى ما سبق؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ، وتحذيرًا لقومِه وللمنافقينَ وأهلِ الكتاب بما جرى لسيِّدنا موسى عليه السلام، من إيذاءٍ له من قومِه وصَبْرِه عليهم؛ ناسبَ أن ينتقلَ إلى قصَّةٍ أُخرى جرتْ لسيِّدنا عيسى ابن مريمَ عليه السلام، وما جرى له معَهُم من إيذاءٍ وإيلامٍ؛ ليكون تثبيتًا للنَّبيِّ ﷺ على ما يلاقيه من إيذاءٍ أو نفاقٍ أو تكذيبٍ، وتحذيرًا للمخاطَبينَ بما صنَعَتْهُ تلك الأقوامُ من زَيغٍ صدرَ منهم وخذلانٍ وقعَ عليهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّصَدِّقًا﴾: الصِّدقُ نَقيضُ الكذبِ، ويقالُ للرَّجُلِ الجوادِ والفرسِ الجواد: إنَّه لذو مَصْدَقٍ، أي: صادقُ الحَمْلة، وصَدَقْتَه: قلتُ لهُ صِدْقًا[1]، وصَدَّقْتُهُ - بالتَّثْقيلِ - : نَسَبْتُهُ إلى الصِّدْقِ، وصَدَّقْتُهُ: قُلْتُ لَهُ: صَدَقْتَ[2]، والمرادُ به في الآية: مُثبِتًا بكلامي ونبوَّتي صدقَ التَّوراةِ، من خلالِ عدمِ الخروجِ عن أحكامِها وشرائعِها، ونِسبَتي الصِّدقَ لَها.

2) ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾: (بشر) أصلٌ واحدٌ، هو ظُهورُ الشَّيءِ مَعَ حُسنٍ وجَمالٍ، ويُقالُ: بَشَّرْتُ فُلانًا أُبَشِّرُهُ تَبشيرًا، وذَلِكَ يَكونُ بِالخَيرِ،

(1) الخليل، العين: (صدق).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (صدق).

ورُبَّما حُمِلَ عليه غَيرُهُ مِنَ الشَّرِّ، وذَلِكَ مِنَ التَّبْكيتِ، فَأمّا إذا أُطْلِقَ الكَلامُ إطلاقًا؛ فالبِشارَةُ بالخَيرِ، والنِّذارَةُ بِغَيْرِهِ[1]، وبَشَرْتُ الرَّجلَ أَبْشُرُه؛ إذا فَرَّحتَه، ومعنى يَبْشُرُكَ من البِشارَة، أي: يَسُرُّك، ويُفْرِحُك، وأصلُ هَذا كُلِّه أنَّ بَشرَةَ الإنسانِ تَنْبَسِطُ عِنْد السُّرور، ومن هَذا قَوْلهم: فلان يَلْقاني بِبِشْرٍ، أي: بوجهٍ مُنْبَسِطٍ عِند السُّرور[2]، والمُرادُ به في الآيةِ: الإخبارُ بما يُفرِحُ من مَجيءِ النَّبيِّ ﷺ ومبعثه بالرِّسالة.

3) ﴿سِحْرٌ﴾: (سحر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الصَّرف عمّا هو واقعٌ وحَقٌّ إلى خلافِهِ، كصَرْفِ الأبصارِ عمّا يُشاهِدونَهُ في الظّاهر إلى خلافِهِ، والسِّحْر: إخراجُ الباطل في صورةِ الحقِّ، ويقالُ: هو الخَديعة، وسَحَرَهُ بكلامِهِ: استمالَهُ برقَّتِه وحُسنِ تركيبِهِ، والسِّحرُ إمّا واقعيٌّ أو ادِّعائيٌّ؛ فالأوَّلُ كما في: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116]، والثّاني كما في: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النّمل: 13]، وهو المرادُ به في الآيةِ هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خـذلانُ النَّبيّين تـكـذيبٌ لـكـلامِ ربِّ العالَمين

يُخبرنا اللّهُ تعالى بما قالَه سيِّدُنا عيسى ﷺ لقومه: إنّي أُرسِلتُ إليكم حالَ كوني مُصدِّقًا لما بينَ يديَّ من التَّوراة، ومُبشِّرًا بِرَسولٍ يَأْتي مِن بَعدي اسمُهُ أحمدُ، وهذا أيضًا داعٍ إلى تصديقِه ﷺ، من حيثُ إنَّ البشارةَ به واقعةٌ في التَّوراة، وحينَ جاءَهم أحمدُ المبشَّرُ به، بالأدلَّة الواضحةِ والمُعجزات الباهرةِ، فاجَؤوه بالتَّكذيبِ والإعراض عنه؛ استكبارًا وعِنادًا، وقالوا: إنَّ ما جئتَ به ما هو إلّا تُرَّهاتٌ وأباطيلُ، وسحرٌ واضحٌ لا شكَّ فيه[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بشر).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 256.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَإِذْ﴾:

صَبْرُ النَّبيّينَ درسٌ لكلِّ المُصلحين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، على ما تقدَّمَ من قولِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [الصف: 5]، عطْفَ الإنشاءِ على الإنشاء، وعطْفَ القصَّةِ على القصَّة[1]، قال الهرريُّ: "إمّا معطوفٌ على (إذ) الأولى معمولٌ لعاملِها، وإمّا معمولٌ لمُضمَرٍ معطوفٍ على عاملِها"[2]، والغرضُ من العطف بيانُ الارتباطِ والاشتراك بينَ القصَّتين، فكلتاهما مثَلٌ ضُرِبَ للنَّبيِّ ﷺ، دالٌّ على ما تعرَّض له موسى وعيسى عليهما السلام مِن قَبلِه معَ أقوامِهم من إيذاءٍ ورفضٍ واستكبارٍ وعِناد.

دلالةُ الظَّرف (إذ):

العـــودةُ إلى المـاضي انـتـزاعٌ للعِبَرِ والدُّروس المَواضي

استعملَ النَّظمُ الكريم الظَّرفَ (إذ)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ للدَّلالة على الزَّمن الماضي[3]؛ لأنَّ (إذ) الظَّرفيَّةَ تدلُّ على حَدَثٍ وقعَ في الماضي، وهي متعلِّقةٌ كسابقتِها بالفعل (اذكُر) مثلًا، وفائدةُ تقييدِ الذِّكر بزمنِ الماضي استلهامُ الدُّروسِ والاستفادة بما فيه من عِبرٍ ومواعظَ نافعةٍ، تعملُ على التَّثبيت والتَّسليةِ والتَّطمين.

دلالةُ فعلِ (القول) مادَّةً وصيغةً:

اللّينُ في الدَّعوة خُلُقُ المُصلحينَ الكَمَلَة

اختارَ النَّظمُ الكريم فعلَ القولِ الماضي، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ للدَّلالة على صدورِ ذلك القولِ منه على سبيلِ التَّحقُّقِ والحُصول، كما دلَّتْ مادَّةُ القولِ على الأُنس في الحوارِ، واللّيونةِ في التَّعبير؛ جلبًا منه لنفوسِهم الصّادَّةِ عن الحقِّ إلى دُروبِ الخير بكلِّ أسلوبٍ عَذْبٍ ورشيق.

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 19/ 70.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 253.

(3) ابن يعيش، شرح المفصّل: 1/ 244.

دلالةُ التَّصريحِ باسمِ العلَم ﴿عِيسَى﴾:

استحضارُ الشَّخصيَّةِ بالتَّعيين يولِّدُ التَّفاعُلَ معَها بكلِّ يقين

صرَّحَ النَّظمُ الكريم بالاسمِ العلم ﴿عِيسَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّشخيص للقائلِ، كما شخَّصَ النَّظمُ من قبلُ الاسمَ العلَمَ ﴿مُوسَىٰ﴾ [الصف: 5]، والتَّعيينُ للشَّخصيَّة يُسهِمُ في تكوينِ تعارُفٍ معَها، يعملُ على تثبيتِ المعنى المقصود منَ الاستحضار للشَّخصيَّة، فينفعل معَها، ويأخذ الدَّرسَ والمغزى بكلِّ تقبُّلٍ واشتياق، بخلاف ما لو قالَ في الموضعين: (رجل)؛ فإنَّه يفيدُ غربةً عنها، وعدمَ تجانُسٍ فاعِلٍ بها.

دلالةُ عطفِ البيان والبدَل ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

التَّوضيحُ والتَّقريرُ والاحتراس وظائفُ العطفِ والإبدالِ في الأساس

حدَّدَ النَّظمُ الكريم الاسمَ العلَم ﴿عِيسَى﴾ بعطفِ البيانِ أوِ البدلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: للدَّلالةِ على تعيينِه بشكلٍ أكثرَ وضوحًا أوَّلًا؛ بناءً على أنَّه عطفُ بيانٍ منه، وليكونَ أكثرَ تقريرًا للمُرادِ وتأكيدًا له ثانيًا؛ بناءً على كونِه بدَلًا منه، وقد أفادتْ بُنوَّتُهُ لمريمَ ﷺ نفيًا وتنزيهًا له عنِ ادِّعاءِ الأُلوهيَّة والبُنوَّة للّٰه تعالى، فيكون العطف والإبدالُ بمنزلة الاحتراسِ عمَّا نُسِبَ له مِن أتباعِه بذلك، وتوقيرًا له عمَّا نُسِبَ له مِن أعدائِه، من كونِه ابنَ زنًى لا يُعرَفُ أبوهُ، وقال الشِّربينيُّ: "ووصْفُهُ بقولِه: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه من غيرِ أبٍ، وثبتت نبوَّته بالمعجزات"[1].

دلالةُ البُنوَّةِ في ﴿ٱبْنُ﴾:

نفيُ الأُلوهيَّة بإثباتِ البنوَّة البشريَّة

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (البنوَّة)، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ للدَّلالة على الفرعيَّة من الأصلِ، وهذه الفرعيَّةُ تَستدعي الافتقارَ والاحتياج للأصلِ، والمحتاجُ لأصلٍ لا يجوزُ أن يكونَ إلهًا، ومن لطائف رسم "لفظ ﴿ٱبْنُ﴾ بإثباتِ الألف خطًّا؛ لنُدرةِ وقوعِه بينَ ذكرٍ وأُنثى"[2].

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 275.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 253.

دلالةُ الأُمومةِ في ﴿مَرْيَمَ﴾:

بشريَّةُ الأُمِّ ووجاهةُ النَّسبِ مع بشريَّةِ الفرعِ وكرامةِ الولَد

حرَصَ النَّظمُ القرآنيُّ على ذكرِ ﴿مَرْيَمَ﴾، والتَّأكيد على أنَّ عيسى ابنُها، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ للدَّلالة على الأُمومةِ التي تُنافي الأُلوهيَّةَ أيضًا؛ إذِ الأُمُّ مفتقِرةٌ في كونِها أُمًّا لولدٍ إلى زوجٍ أو مؤثِّرٍ فيها بطريقةٍ لتكونَ أُمًّا، وأفاد ذِكرُ الاسمِ العلَم ﴿مَرْيَمَ﴾ تحديدًا دقيقًا لبشريَّةِ عيسى عليه السلام، وبشريَّةِ أُمِّه عليها السلام؛ إذِ الإلهُ لا يفتقرُ إلى أصلٍ، ولا يكونُ متَّصِفًا بصفاتِ الحوادث؛ إذ كلُّ ذلك سِمةُ العجزِ والافتقار، كما أنَّ في ذِكر ﴿مَرْيَمَ﴾ مع ابنها تشريفًا لها بالحَصانة والرَّزانة؛ إذ إثباتُ الولد لها دالٌّ على خَلْقِ ﴿عِيسَى﴾ منها بدون الحاجةِ إلى الأبِ، فلا تكونُ زانيةً كما يَدَّعيه اليهودُ فيها زورًا وبُهتانًا.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

التَّكريمُ والتَّشريفُ لائقانِ بالنَّظمِ المُنيف

أضافَ النَّظمُ الكريم الابنَ إلى مريمَ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعيين والتَّعريف لذاتِ الابن[1]، وإنْ عُرِفَ بأنَّ اسمَهُ عيسى، ولكن لم يُعرَفْ أنَّه ابنٌ لمريمَ إلّا بالإضافةِ لها، والإضافةُ دلَّتْ على وضعِ الأشياء في نِصابها، فهو ابنُ مريمَ، وليس ابنًا لله، وهو ابنُ مريمَ، وليس ابنًا لأبٍ مجهول، ففي الإضافةِ تكريمٌ وتشريفٌ واحتراسٌ.

دلالةُ النِّداءِ بـ(يا):

بُعْدُ المُخاطَبينَ حِسًّا أو حُكمًا مُستجلِبٌ للاستبدالِ نَظْمًا

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(يا) النِّدائيَّةِ التَّنبيهيَّة، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بمضمونِ الكلام، حتّى طُلِبَ منَ المخاطَبينَ الإصغاءُ والاهتمامُ والإقبالُ، كما يفيدُ النِّداء بـ(يا) الدّالَّة على البُعد أنَّ المخاطَبينَ بها غافلونَ أوْ في منزلتهم

(1) حاشية الصّبان على شرح الأشمونيّ: 2/ 360.

بقرينةِ السّياق، أي: إنَّهم بعيدونَ عن المُنادي حسًّا أو حُكمًا، فيُطلَب إقبالُهم لتحقيقِ مَزيدٍ من الإصغاءِ للأمرِ العظيم.

سرُّ اختيار (بني) دونَ (يَهود):

تَساوي الرُّتبةِ داعٍ للإصغاءِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ المنادى (بني)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على انتمائِهم بالبُنوَّةِ لأصل، كما أنَّ المُنادي والمخاطِبَ لهُم مُنتَمٍ بالبنوَّةِ لأصل، وموجِبِ كونِهم فُروعًا تساوي الطّالبِ والمطلوب في الفرعيَّة، وذلك التَّساوي يُحقِّقُ فائدةَ الإصغاءِ له، والإقبالِ على سَماع كلامِه بشكلٍ أكبرَ.

دلالةُ الإضافةِ في (بني إسرائيل):

التَّذكيرُ بالأصل الشَّريف يَستلزمُ الإقبالَ للكلام المُنيف

أضافَ النَّظمُ الكريم (بني) إلى ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على انتمائِهم لنبيٍّ عظيمٍ يَدعوهم للإقبالِ وسَماع كلامِه؛ إذ خطابُ الإنسان بلفظِ شريفٍ وأصلٍ كريمٍ يَدعوه للإصغاءِ والاهتمام، فاختارَ النَّظمُ الكريمُ المُركَّبَ الإضافيَّ مُنادًى؛ حتّى يُذكِّرَهُم بأنَّهم من نسلِ الأنبياءِ العِظام، وأنَّه نبيٌّ مثلُهم، فانتماؤُهم بالبنوَّة للأنبياءِ يَجعلُهُم لا يَستبعدونَ نبوَّته ورِسالتَه، وقال الشَّربينيُّ: "ذكَّرهم بما كانَ عليه أبوهم من الدّين، وما أوْصَى به بنيه من التَّمسُّكِ بالإسلام"[1].

إيثارُ النَّظم العلَمَ ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الانتماءُ للأنبياء موجِبٌ كونَهم منَ الصُّلَحاء

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ العلَم ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ البنينَ؛ إذ الإضافةُ إلى المعرفةِ تحقِّقُ التَّعيين والتَّشخيصَ للبنين[2]، و﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ علَمٌ على يعقوبَ عليه السلام، ومعناهُ بالعبريَّة (عبد الله)، ومقتضى العبوديَّةِ الطّاعةُ والخضوعُ لكلامِ الأنبياءِ والرُّسُل.

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 275.
(2) حاشية الصّبّان على شرح الأشمونيّ: 2/ 360.

دلالةُ العُدول من (القَوم) إلى (بني إسرائيلَ):

إثباتُ نَزاهتِه مُقرِّرٌ لتوهينِ اتِّهامِه، ودفاعٌ عن شرفِه وكَرامتِه

عدلَ النَّظمُ الكريم عن مناداةِ المخاطبينَ بـ(يا قوم) - كما وقعَ لموسى معَ قومِه من قبل - إلى قولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم ليسوا قومَهُ، ولا يَنتمي لهم بالبنوَّةِ والأُبوَّة، قال الحنبليُّ: "لأنَّه لم يكُن لهُ في بني إسرائيلَ قَرابةٌ"[1]، بل يرتبطُ بهم من جهةِ الأُمومةِ فحسبُ، "فمريمُ من بني إسرائيل؛ لأنَّ إسرائيلَ لَقَبُ يعقوبَ، ومريمُ مِن نَسلِه"[2]، وفي ذلك ردٌّ لهم عمّا اعتقدوهُ في أُمِّه، وأنَّه جاءَ من سِفاح، فلو قالَ لهم: (يا قوم)؛ لكان مُصدِّقًا لهم في اتِّهامِهم وانتمائِه إليهم بالقوميَّة، وجوَّزَ الطَّيبيُّ أن يكونَ العدولُ: "للاستعطاف؛ لمجيءِ قولِه: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾، أي: إنّي أُرسلتُ إليكم في حالِ تصديقي لكتابٍ نزلَ إليكُم يا بني إسرائيلَ خاصَّةً"[3]، "أو إشارةٌ إلى أنَّه عاملٌ بالتَّوراة، وأنَّه مثلُهم من قومِ (موسى) ﷺ، هَضْمًا لنفسِه بأنَّه لا أتباعَ له ولا قومَ"[4]، وفيه من الاستعطافِ ما فيه، وقيل: إنَّ التَّعبيرَ بما ذكر؛ لِما فيه منَ التَّعظيم لهم، فقد كانوا يفتخرونَ بنِسبتِهم إلى إسرائيلَ ﷺ"[5].

وجوَّزَ ابنُ عاشور للعدولِ وجْهًا آخَرَ بقوله: "ونادَى عيسَى قَوْمَهُ بِعُنوانِ: (بَني إسْرائيلَ) دونَ (يا قَوْم)؛ لأنَّ بَني إسرائيلَ بَعدَ (موسَى) اشتُهِروا بِعُنوانِ: (بَني إسْرائيلَ)، ولم يُطلَق عليهِم عُنوانُ (قومِ موسى) إلّا في مُدَّةِ حَياةِ (موسى) خاصَّةً، فَإنَّهُم إنَّما صاروا أُمَّةً وقَومًا بِسَبَبِه وشَريعَتِه، فَأمّا (عيسَى)؛ فَإنَّما كانَ مُرسَلًا بِتَأييدِ شَريعَةِ موسَى، والتَّذكيرِ بِها وتَغييرِ بَعضِ أحكامِها،

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 41.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 387.
(4) وردّ هذا التّوجيهَ القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 19/ 71.
(5) مجموع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1399.

ولأنَّ عيسَى حينَ خاطَبَهُم لم يَكونوا قَدِ اتَّبَعوهُ، ولا صَدَّقوهُ، فَلم يَكونوا قَوْمًا لَهُ خالِصينَ"[1].

دلالةُ الحرفِ (إنَّ):

تحقيقُ الكلام ردٌّ لسيّئ الاتِّهام

ابتدأ النَّظمُ الكريم جملةَ النِّداء بالحرف (إنَّ)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على تحقيقِ نسبةِ الجُملة، وتثبيتِ مَعناها في ذهن السّامعِ وتقريرِ مَضمونِ الكلام؛ لأنَّهم أنكروا ذلك، وسَعوا جاهِدينَ إلى تكذيبِه واتِّهامه بالسِّحر، كما سيأتي تفصيلُهُ.

دلالةُ الضَّميرِ في ﴿إِنِّي﴾:

تعيينُ الذّات موجبٌ للتَّصديقِ لها بما اقترنَتْ به من الآيات

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ضميرَ المتكلِّم، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على الذّاتِ الَّتي يعرفونَها بقرينةِ التَّكلُّم، فيكونُ تعريفًا لنفسِه وتعيينًا لها، ومقتضى ذلك التَّعيينِ تذكيرُهم بما أظهَرَه الله على يدَيه من المعجزاتِ والآياتِ والبراهين المقترنةِ بذاتِه المُتكلِّمة، فلا داعيَ للشَّكِّ في أيِّ شيءٍ يُثبتُهُ لنفسِه ممّا يليقُ بتلك الأمور الخارقةِ للعادة.

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿رَسُولُ﴾:

مُقتضى الرِّسوليَّةِ دالٌّ على البشريَّة والكرامةِ النَّسَبيَّة

اختارَ النَّظمُ الكريم الخبرَ ﴿رَسُولُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على وصفِ ذاتِه بحُكمٍ يُناسِبُ ما ظهرَ على يدَيه من الخوارق والمعجزاتِ منذُ وُلادتِه، ومُؤكِّدٌ على أنَّه رسولٌ، وليس إلهًا، وأنَّه شريفُ الأصل، وليس من سِفاح؛ لأنَّ الله تعالى يختارُ الأصيلَ الشَّريفَ من القوم؛ ليكونَ رَسولًا ونبيًّا، ففيه ردٌّ على كلتا الدَّعوتَينِ الكاذبتَين، وأورد النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿رَسُولُ﴾ على صيغةِ (فعول)[2]؛ للدَّلالة على المُبالغة في الاتِّصاف بذلك الوصفِ، أو أنَّه بمعنى (مُرسَل) اسم مفعول، والإلهُ يُرسِلُ، ولا يُرسَلُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 180.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 24.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

مصدرُ اللَّقَب يوجِبُ عليهم المزيدَ منَ الأدَب

أضافَ النَّظمُ الكريم (الرَّسول)، الواردَ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ مصدرِ هذا الوصفِ واللَّقبِ الَّذي حازَهُ، بأنَّه من اللّه تعالى، فالإضافةُ بيانيَّةٌ بمعنى (مِن)؛ لإفادةِ أنَّ مبدأ اتِّصافه بذلك الوصفِ من اللّه تعالى، فكيف يكونُ إلهًا أوْ من سِفاح؟ إذ مقتضى الإضافةِ أنَّه رسولٌ كغيره من الرُّسُل، وأنَّه شريفٌ كريمٌ؛ إذِ الإضافةُ للذّاتِ الجليلةِ تشريفٌ وتكريمٌ.

دلالةُ المتعلَّقِ ﴿إِلَيْكُم﴾:

تحديدُ الغاية لاختصاص موجِبٌ للعناية والاستئناس

اختارَ النَّظمُ الكريم المتعلَّقَ بالرَّسول، وهو ﴿إِلَيْكُم﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾؛ للدَّلالة على تحديدِ غايةِ إرسالِه بعدَ أن حدَّدَ مبدأ إرسالِه، ووظيفةُ المبدأ الدَّلالةُ على البشريَّة والنَّسَبِ الأصيل، وغايةُ الانتهاء والغايةِ الدَّلالةُ على الاختصاصِ بالمُرسَل إليهم، فلم تكنْ دعوتُهُ ﷺ إلّا مختصَّةً بهم، وذلك أدعَى لقَبولِهم والإيمانِ به، فهو نعمةٌ محيطةٌ بهم، ومقتضى النِّعمةِ المختصَّة التَّصديقُ بالشُّكْر علَيها.

دلالةُ ﴿مُّصَدِّقًا﴾ موقعًا ومادَّةً:

تصديقُ الرَّسولِ لما قبلَه أدعَى لإجابتِه والإذعانِ لَه

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالحالِ ﴿مُّصَدِّقًا﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا﴾؛ للدَّلالة على هيئةِ الضَّمير المُخبَرِ عنه بأنَّه المُرسَلُ إليهم، فيكون الضَّميرُ صاحبَ الحالِ، و(رسولاً) عامِلًا في الحالِ لـ"ما في الرَّسول من معنى الإرسال"[1]، واسمُ الفاعل مُشتقٌّ من الفعلِ المزيدِ فيه بالتَّضعيف (صدَّق)، فيكونُ مُثبِتًا لصدقِ التَّوراةِ من خلال عدمِ نقضِ أحكامِها، وعدمِ الخروجِ عن إثباتِ حقّيَّتِها وصِدْقِها؛ إذ إرسالُهُ تصديقٌ بالتَّوراة، الَّتي بشَّرت به، وبمَن سيأتي بعدَهُ، وذلك أدعى لإجابتِه وتصديقِه؛ لأنَّ شريعتَهُ امتدادٌ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.

لشريعةِ التَّوراة، ووجودَهُ حاكمٌ بصدقِها، فاللّائق بهم الإذعانُ له والتَّصديقُ به، ولذا فإنَّ مادَّةَ الحالِ تَحتمِلُ: أنّي جئتُ إليكم بالنَّعتِ الذي وُصِفْتُ في التَّوراة، أو ﴿مُّصَدِّقًا﴾ بالتَّوراة وبكُتُبِ الله تعالى؛ ليُعلَمَ أنَّ الرُّسُلَ كان يلزمُهم الإيمانُ بالكتب المتقدِّمة والرُّسُلِ جميعًا، كما يلزمُ ذلك أمَّتَهم، أو آمرُكم بعبادةِ الله ﷻ وتوحيدِه، كما أُمِرتُم به في التَّوراة؛ ليُعلَمَ أنَّ الرُّسُل كان دينُهم واحِدًا، وأنَّهم كلَّهم يدعونَ إلى التَّوحيد وعبادةِ الرَّحمن، وأمّا الشَّرائع؛ فقد يجوزُ اختلافُها، ولا يدلُّ ذلك على اختلافٍ في الدّين؛ لأنَّ الشَّرائع قد تختلفُ في رسولٍ واحدٍ، ولا يَختلفُ دينُهُ، فكذلك الرُّسُل"[1]، وفي الحال دلالةٌ: "على أنَّ تصديقَ المتقدِّم من الأنبياء والكتُب من شعائرِ أهلِ الصِّدق، وفيه مدحٌ لأمَّةِ محمَّد ﷺ حيثُ صدَّقوا الكلَّ"[2].

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِّمَا﴾:

التَّصديقُ للمضامين موافقةٌ لوصايا المُرسَلين السّابقين

عدَّى النَّظمُ الكريمُ التَّصديقَ بـ(اللّام) دونَ (الباء)، في قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رسوليَّته تصديقٌ له، لا مجرَّدُ تصديقٍ به؛ إذِ التَّصديقُ بالشَّيء اعترافٌ وإذعانٌ بصحَّتِه، والتَّصديقُ له بالإتيانِ بشريعةٍ تكونُ امتدادًا له وإثباتًا لصحَّته، وأنَّ ادِّعاءَهُ الرِّسالةَ موافقٌ لنصوصِها المبشِّرة به، فيكونُ تصديقًا لها وموافقةً لمضمونِها.

دلالةُ (ما) في ﴿لِّمَا﴾:

الإجمالُ بالكلام بلوغُ المَرام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسمِ الموصول (ما)، في قولِه تعالى: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ للدَّلالةِ على العمومِ الشّاملِ لَمجموعِ الأوامرِ والأحكام، وفي (ما) إبهامٌ يحتاجُ إلى تفسيرٍ وتفصيل، فيكون فيه تشويقٌ لما سيأتي بعدَهُ من بيانٍ وإيضاح.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 631.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.

دلالةُ الكنايةِ في الإضافةِ ﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾:

اختارَ النَّظمُ الكريمُ التَّركيبَ الظَّرفيَّ صلةً للموصولِ، في قولِه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على الحُضورِ أمامَهُ وفي مَرأى العين ومَسمَعِ الأُذُن، فهو كنايةٌ عن الحاضِرِ أمامَهُ؛ إذ يلزمُ من كونِ الشَّيء بينَ اليدينِ أنَّه حاضِرٌ لديه، ولا يكونُ حاضِرًا عنده إلّا إذا كان مُتقدِّمًا عليه، فهو مُصدِّقٌ للشَّيءِ السّابق عليه، والمُمتدِّ إلى زمنِ حاضِرِه.

الشَّيءُ بينَ اليدَينِ حاضرٌ أمامَ العَينِ

دلالةُ (اليدينِ):

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الحاضرِ أمامَ المُصدِّق بكونِه بينَ اليدينِ في قولِه تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾؛ للدَّلالة على القَبولِ به؛ إذ كونُ الشَّيءِ بينَ اليدينِ يفيدُ الاعترافَ به، والتَّصديقَ أيضًا.

الحضورُ بينَ اليدين تصديقٌ بمجموعِ المَضامين

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مِنَ﴾ الجارَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ للدَّلالة على البيانِ للمُبهَم والإيضاحِ للمُجمَل، وفي ذلك التَّفصيلِ ترغيبٌ منه لهم بالإيمانِ به؛ فهو مُصدِّقٌ لما يُؤمنونَ به، فالأجدرُ منهم القَبولُ والإذعانُ.

التَّفصيلُ والبيان كاشفٌ عن اللّائق بالإيمان

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ للدَّلالةِ على العهدِ العلْميِّ بالكتابِ المنزَّلِ على بني إسرائيل، وفي التَّعريفِ والتَّعيينِ لهُ إشارةٌ إلى أنَّ إيمانَهم بالتَّوراةِ المنزَّلة عليهم داعٍ للتَّصديقِ بها؛ فرَسوليَّتُه مصدِّقةٌ بما تضمَّنتْهُ من بشاراتٍ به، وموافقتِه لأحكامها ومضامينِها.

تعيينُ الكتابِ المُصدَّق يَستدعي الإيمانَ المُحقَّق

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ على

الحالِ السّابقة، و"العاملُ في الحالينِ ما في (الرسول) من معنى الإرسال"[1]؛ ليُفيدَ الجمعَ بينَ الحالين، وهما التَّصديقُ لما في التَّوراةِ من بِشاراتٍ بشَّرتْ بعيسى عليه السلام، وبشاراتٍ بشَّرتْ بمحمَّدٍ ﷺ، والتَّبشيرُ مجدَّدًا بالرَّسولِ الخاتَم ﷺ، فيكونَ النَّظم الكريمُ قد بيَّنَ هيئةَ المُرسَلِ إليهم بالتَّصديقِ منه لما جاءتْ به بشاراتُ التَّوراة، والتَّأكيدِ على البشاراتِ الَّتي جاءتْ بها التَّوراةُ بالنَّبيِّ الكريم ﷺ، حتّى إنَّه بَشَّرَ به مُحقِّقًا لتلك البشاراتِ السّابقة، "وهذا أيضًا داعٍ إلى تصديقِه عليه السلام، من حيثُ إنَّ البشارةَ به واقعةٌ في التَّوراة"[2].

التَّصديق والتَّبشير تأكيد على قُرب وصولِ البشير النَّذير

دلالةُ اسمِ الفاعلِ (مُبشِّرًا):

آثرَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعلِ من (التَّبشير)، في قولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رسوليَّةَ عيسى عليه السلام مقيَّدةٌ بالتَّبشير، فيكونُ التَّبشيرُ به غايةً أساسيَّةً للرَّسوليَّة، و"بشَّرهم به؛ ليُؤمنوا به عندَ مَجيئه، أوْ ليكونَ معجزةً لعيسى عندَ ظُهوره، والتَّبشيرُ به تبشيرٌ بالقُرآن أيضًا، وتصديقٌ له كالتَّوراة"[3]، ودلَّ اسمُ الفاعل على حصولِ ذلك منه على سبيل التَّكثيرِ والمبالغة؛ لأنَّ اسم الفاعلِ مشتقٌّ من الفعلِ (يُبشِّرُ)، الدّالِّ على التَّكثيرِ والمُبالغة في الفعل، والتَّبشير هو الإخبارُ بالسّارِّ من الكلام، فهو المقابلُ للتَّخويفِ والتَّهديد، ممّا يدلُّ على أنَّ المبشَّر به رحمةٌ للعالَمينَ، وفرحةٌ للمؤمنينَ، و(مبشِّرًا) يرفعُ فاعلًا مُستترًا يعودُ إلى (عيسى) عليه السلام، وإنَّما أُفردَ التَّبشيرُ به - مع أنَّ كلَّ نبيٍّ بشَّرَ قومَهُ بنبيِّنا ﷺ - "لأنَّه آخرُ نبيٍّ قبلَ نبيِّنا ﷺ؛ فبيَّن بذلك أنَّ البشارةَ به عمَّتْ جميعَ الأنبياء واحدًا بعدَ واحدٍ، حتَّى انتهتْ بعيسى عليه السلام"[4].

المُبشَّرُ به رحمةٌ للعالَمين وفرحةٌ للمُؤمنين

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 208.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 577.

معنى (الباءِ) ودلالتُها في ﴿بِرَسُولِ﴾:

تقييدُ التَّبشير يدلُّ على البِشْرِ الجامِعِ الكبير

عدَّى النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعل (مُبشِّرًا) بالباءِ، في قولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾؛ للدَّلالةِ على المبشَّرِ به، وقد حذفَ النَّظمُ الكريمُ المُبشَّرينَ، وهم (بنو إسرائيل)؛ للعلْمِ بهم من الكلامِ السّابق، ولإفادةِ العموم، فيشملُ الجميع، ويدخلُ بنو إسرائيل فيهم بطريقِ الأولويَّة، وقد دلَّتِ (الباءُ) المعدّية على تقييدِ فعلِ التَّبشيرِ بالمبشَّر به، وهو الرَّسولُ دون أيَّةِ بشارةٍ أُخرى، والمعتادُ أنْ نقولَ: (بشَّرتُكَ بالخيرِ)، فيكون المبشَّرُ به جامعًا لكلِّ بشاراتِ الخير؛ إذ أعلى بشارةٍ يحصلُ عليها النَّوعُ الإنسانيُّ أن يُرسِلَ المولى الجليلُ لهم رَسولًا منه، ولذا قالَ ابنُ عاشور عن التَّبشير: "الإخبارُ بحادثٍ يَسُرُّ، وأُطلِقَ هُنا على الإخبارِ بأمرٍ عَظيمِ النَّفعِ لَهُم؛ لأنَّهُ يَلزَمُهُ السُّرورُ الحَقُّ؛ فَإنَّ مَجيءَ الرَّسولِ إلى النّاسِ نِعمَةٌ عَظيمَةٌ"[1].

دلالةُ التَّنكيرِ في (رَسول):

تفخيمُ الرَّسول لكونِه لكلِّ الأُمَم والأُصول

حدَّدَ النَّظمُ الكريم المُبشَّرَ به بأنَّه (رسولٌ)، في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾؛ للدَّلالةِ على جنسِ البِشارة ووظيفةِ المبشَّرِ به، وعُلِمَ ممّا سبق أنَّه رسولٌ من اللّه؛ لقولِه قبلُ: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾، فهو رسولُ اللّه، والمُبشَّرُ به رسولُ اللّه أيضًا، لكنَّ النَّظمَ الكريم، كما حذفَ مَبدأ الإرسالِ حذفَ غايةَ الإرسال، فلم يقُل: (إليكم)؛ للدَّلالةِ على عالميَّةِ تلك الرِّسالة، وأنَّها غيرُ مختصَّةٍ بأُمَّةٍ من الأمم، ففي تنكيرِ (رسول) تفخيمٌ وتعظيمٌ لشأنِه ﷺ.

دلالةُ النَّعتِ بالجملةِ الفعليَّة ﴿يَأۡتِي﴾:

استعارةُ الإتيان دالٌّ على القَبولِ والجَرَيان

وصفَ النَّظمُ الكريمُ النَّكرةَ بالجملةِ الفعليَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ للدَّلالةِ على تخصيصِ الرَّسول المنكَّرِ بالإتيانِ والقدوم، وذلك الإتيانُ دليلٌ على أنَّه رسولٌ من اللّه تعالى؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 181.

لأنَّ الَّذي يأتي لا بدَّ من أنْ يكونَ قادِمًا مِن مُرسِلٍ، فيكون النَّظمُ الكريمُ قدِ استعارَ الإتيانَ للإرسالِ، فلم يقل: (برسولٍ يُرسَلُ مِن بعدي)، فقد شبَّه الإرسالَ بالإتيانِ بجامعِ الحُضور في كلٍّ من الرَّسول والآتي، والغرضُ من الاستعارة إفادةُ أنَّه قَبِلَ الإرسالَ، واتَّصفَ بالإتيانِ، وأفادتِ الجملةُ الفعليَّةُ دلالةَ الحدوثِ لعمليَّة الإتيانِ والقُدوم.

دلالةُ الفعلِ المُضارعِ ﴿يَأۡتِي﴾:

انتظارُ الخبرِ السَّعيد بقدومِ النَّبيِّ الجديد

اختارَ النَّظمُ الكريم الفعلَ المضارعَ ﴿يَأۡتِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ للدَّلالةِ على حصولِ ذلك الإتيانِ في المستقبلِ لزمنِ التَّكلُّم، وفي تحديدِ الزَّمنِ المستقبلِ دعوةٌ للأذهانِ وتهيئةٌ لانتظارِ الخبرِ السَّعيد بقدومِ النَّبيِّ المَجيد ﷺ.

معنى المتعلَّق ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾، ودلالته:

ابتداءُ الإتيانِ بالبَعديَّة تقريبٌ للأزمنةِ المستقبليَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿مِنۢ﴾ الجارَّة ومجرورها، في قولِه تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ للدَّلالة على الابتداءِ الزَّمنيِّ، فهو يأتي مِن اللَّه تعالى إرسالًا، ويبدأُ الإتيانُ مِن زمنٍ يقرُبُ من زمانٍ هو بعدي، فيكونُ في ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المدَّةَ الزَّمنيَّةَ بينَ عيسى عليه السلام، وبينَ نبيِّنا ﷺ مدَّةٌ يسيرةٌ، حتّى كأنَّها تبدأ بمُجرَّدِ بَعْديَّتِه، وأنَّه لا نبيَّ أوْ رسولَ بينَهُما، فهو الآتي مِن بعدِه، ولم يقُل: (يأتي من اللَّه)؛ لأنَّه فُهِم من كونِه رسولًا أنَّه مُرسَلٌ من اللَّه تعالى.

الموقعُ الإعرابيُّ لجملةِ ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾:

التَّسميةُ والتَّوصيفُ دائمانِ لهُ؛ لكمالِ التَّشريف

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الاسميَّة، في قوله تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾؛ لتكونَ نعتًا ثانيًا لـ(رسول)، ووظيفةُ النَّعتِ التَّخصيصُ للنَّكرة؛ تقليلًا للشُّيوعِ وتوضيحًا للإبهام، وقد خُصِّصتِ النَّكرةُ بجُملتَين: الأولى منهما فعليَّةٌ: ﴿يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ لمُناسبتها للإرسالِ والإتيانِ، وهُما فعلانِ حادثانِ، والثّانيةُ منهما اسميَّةٌ: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ

﴿أَحۡمَدُ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام؛ إذِ التَّسميةُ له، أو التَّوصيفُ بذلك الوصفِ حاصلٌ أزلًا وأبدًا، ويحتملُ أن تكونَ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ دلالةً على استقلالِها والاهتمام بها، فيكونَ ترْكُ الوصلِ؛ لكونِها واقعةً في جوابِ سُؤالٍ مُفادُهُ: وما اسمُهُ؟ فقال: اسمُهُ أحمدُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ العلَم ﴿أَحۡمَدُ﴾:

تحقيقُ التَّعيينِ بدَفْعِ اللَّبسِ عنِ المُخاطَبين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسم العلَم، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعيينِ والتَّعريف، حتّى لا يقعَ إبهامٌ في تحديدِه وتشخيصِه، ومِن ثَمَّ قال البقاعيُّ: "ولمّا كان الإتيانُ بغايةِ البيان وإزاحةِ اللَّبس بكلِّ اعتبارٍ؛ أقعدَ في العتابِ لمَن هفا بعدَهُ، والأخذ لمَن جفا، فنقضَ عهدَهُ؛ أتى بالاسمِ الَّذي ما شاركَ النَّبيَّ ﷺ فيه أحدٌ في زمانِه ولا قبلَهُ أصلًا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(الاسم):

ثبوتُ الأحمديَّة على سبيلِ العلَميَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الاسم)، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾؛ للدَّلالة إمّا على (الاسم) بمعنى (العلَم)، أي: عَلَمُهُ الَّذي يُعرَفُ به في التَّوراةِ هو أحمدُ، فيكونُ استعمالُ (الاسم) حينَئذٍ على سبيل الحقيقة، وإمّا بمعنى (الوصْف)، أي: وصفُه أحمدُ، فيكونُ مجازًا في إطلاقِ الاسم على الوصْف، وإنَّما عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الوصفِ بالاسم استعارةً؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الوصفَ لازمٌ له ﷺ لزومَ الأعلامِ لمُسمَّياتها، فيكون هنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ، ويقوّي إرادةَ الوصفيَّةِ على العلميَّةِ أنَّ اسمَهُ ﷺ المعروفَ به هو (محمَّد)، وليسَ (أحمدَ)، وأنَّ اللّائق بالبشارات ذِكرُ الأوصافِ دونَ الأعلام؛ حمايةً للمبشَّرِ به، وإكرامًا له بذِكرِ أوصافِه الجليلةِ، ومنعًا للادِّعاء نتيجةَ توافُقِ الأسماءِ الأعلام.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 528.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 14.

إطلاقاتُ (اسم) ودلالاتُهُ:

تعدُّدُ المعنى الاستعماليّ، وأثرُهُ في الحمل الدّلاليّ

ناقشَ ابن عاشور دلالات الاسم وإطلاقاته في كلام العرب عندما تعرَّض لقوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ قائلًا: "ولا يُحمَلُ قولُهُ: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ على ما يَتبادَرُ من لَفْظِ (اسْم) من أنَّهُ العلَمُ؛ لأنَّ هَذا الحملَ يمنَعُ منهُ أنَّهُ لَيسَ بمُطابِقٍ للواقِعِ؛ لأنَّ الرَّسولَ المَوْعودَ به لم يَدْعُهُ النّاسُ (أحْمَد)، فَلم يَكُنْ أحَدٌ يَدْعو النَّبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ باسْمِ (أحْمَدَ)، لا قبلَ نبوَّته ولا بَعْدَها، ولا يُعْرَفُ ذَلِكَ"[1]، وحدَّدَ استعمالاتِ لفظةِ (اسم) بثلاثة إطلاقاتٍ، هي:

أوّلا: أنْ يَكونَ بِمَعنَى المُسَمَّى، فإن كانَ لفظُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ اسمَ تَفْضيلٍ يَجوزُ أنْ يَكونَ مَسْلوبَ المُفاضَلَةِ، مَعْنيًّا به القوَّة فيما هو مُشتَقٌّ منهُ، أي: الحمد، وهو الثَّناءُ، فيكونَ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ هُنا مُستَعمَلًا في قوَّةِ مَفعوليَّةِ الحمدِ، أي: حمدِ النّاسِ إيّاهُ، فالوصْفُ بِـ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ بالنِّسبَةِ للمَعنى الأوَّلِ في (اسْم): أنَّ مُسمَّى هذا الرَّسول ونفسهُ مَوصوفة بأقوى ما يَحمَدُ عليه مَحمودٌ، فَيَشمَلُ ذَلِكَ جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ النَّفسانيَّةِ والخُلُقيَّةِ والخِلقيَّةِ والنَّسَبيَّةِ والقَوميَّةِ، وغَيرِ ذَلِكَ ممّا هو مَعْدودٌ مِنَ الكمالات الذّاتيَّة والعَرَضيَّة، ويَصِحُّ اعتبارُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ تَفْضيلًا حَقيقيًّا في كَلامِ عيسَى عليه السلام، أي: مُسَمّاهُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ مِنّي، أي: أفْضَلُ، أي: في رِسالَتِه وشَريعَتِه.

ثانيًا: أنْ يَكونَ الاسمُ بِمَعْنَى شُهْرَةٍ في الخَيْرِ، والوصْفُ بِـ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ على هذا المعنى أنَّ سُمْعَتَهُ وذِكْرَهُ في جيلِه والأجْيالِ بَعْدَهُ مَوْصوفٌ بِأنَّهُ أشَدُّ ذِكْرًا مَحْمودًا وسُمْعَةً مَحْمودَةً.

ثالثًا: أنْ يُطْلَقَ على لَفْظٍ جُعِلَ دالًّا على ذاتٍ؛ لِتُمَيَّزَ من كَثيرٍ من أمثالِها، وهَذا هو العلَمُ، ووَصْفُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ بالنِّسْبَةِ إلَى هذا المَعْنَى رمزٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 182.

إلَى أنَّهُ اسمُهُ العلَمُ، ويكونُ بمعنى: أحْمَدَ، فَإنَّ لَفْظَ (مُحَمَّدٍ) اسمُ مَفْعولٍ مِن (حَمَّدَ) المُضاعَفِ الدّالِّ على كَثْرَةِ حَمْدِ الحامِدينَ إيّاهُ؛ كَما قالوا: فُلانٌ مُمَدَّحٌ؛ إذا تَكَرَّرَ مَدحُهُ مِن مادِحينَ كَثيرينَ، فاسْمُ (مُحَمَّدٍ) يُفيدُ مَعنَى المَحمودِ حمدًا كَثيرًا، ورُمِزَ إلَيه بِأحمَدَ"[1].

دلالةُ الاسمِ ﴿أَحْمَدُ﴾:

أغلبيَّتُهُ لكلِّ حامِدٍ تعظيمٌ لمقامِه الماجِد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الاسم للنَّبيِّ الكريم بلفظِ ﴿أَحْمَدُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مُشاركٌ للآخر في الحمْدِ معَ زيادةٍ فيه، ففيه إشارةٌ إلى تفضيلِ مقامِه الشَّريف على سائِرِ الحمّادينَ للّه تعالى، إذِ اسمُ التَّفضيل: ما دلَّ على معنًى في صاحبِه معَ زيادةٍ في ذلك المعنى على غيرِه، ولذا قال الحنبليُّ: "هو الَّذي حَمْدُه لربِّه أفضلُ من حمدِ الحامدينَ غيرِه، وهو الذي يَحمِدُهُ أهلُ الدُّنيا وأهلُ الآخرة، وأهلُ السَّماء والأرض، فلكثرةِ خَصائِلِه المحمودة التي تفوقُ عددَ العادّين سُمّيَ باسمَينِ من أسماءِ الحمد، يَقتضيانِ التَّفضيلَ والزّيادة في القَدْرِ والصِّفة، فدلَّ أحدُ الاسمَينِ، وهو (محمَّد) على كونِه مَحمودًا، ودلَّ الاسمُ الثاني، وهو ﴿أَحْمَدُ﴾ على كونِه أحمدَ الحامدينَ لربِّه، وأنَّ الحمدَ الَّذي يَستحقُّه أفضلُ ممّا يَستحِقُّهُ غيرُهُ"[2]، فالاسمُ: "﴿أَحْمَدُ﴾ يحتملُ معنيينِ: **أحدهما:** أنَّه مبالغةٌ من الفاعل، أي: إنَّه أكثرُ حمدًا للّه من غيرِه، **والآخر:** أنَّه مبالغةٌ من المفعول، أي: إنَّه يُحمَدُ بما فيه من الأخلاقِ والمَحاسنِ أكثرَ ممّا يُحمَدُ غيرُهُ"[3]، فإن كانَ في مُبالغةِ (الفاعل)؛ فيترجَّحُ كونُ ﴿ٱسْمُهُۥٓ﴾ بمعنى الصِّفة، وإن كان في مُبالغةِ (المفعول)؛ فيترجَّحُ كونُ ﴿ٱسْمُهُۥٓ﴾ بمعنى العلَم؛ لأنَّ محمَّدًا هو أحمدُ حينَئذٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 182، وما بعدها.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 41.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 388.

والحمدُ هو الثَّناءُ باللِّسان على الجميلِ الاختياريِّ مقابلَ نعمةٍ أوْ غيرها، فيكون أحمدَ بموافقةِ جَنانه لِلسانِه، وبزيادةِ حمْده اللِّسانيِّ على غَيره.

بلاغةُ إدماجِ التَّبشيرِ في الإيذاء:

الخبرُ السَّعيد يُزيلُ الحُزنَ معَ التَّبديد

أدمجَ النَّظمُ الكريمُ التَّبشيرَ بالنَّبيِّ ﷺ، في قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، في الموضوعِ الأساسِ الذي هو بيانُ إيذاءِ النَّبيّينَ السّابقينَ وصبرِهم على أقوامِهم، قال ابن عاشور: "وذِكْرُ القُرآنِ تَبشيرَ عيسَى بِمُحَمَّدٍ عليهما الصَّلاة والسَّلام إدماجٌ في خِلالِ المَقْصودِ، الذي هو تَنْظيرُ ما أوذيَ به موسَى مِن قَومِه، وما أوذيَ به عيسَى مِن قَوْمِه؛ إدماجًا يُؤَيِّدُ به النَّبيَّ ﷺ، ويُثَبِّتُ فُؤادَهُ، ويَزيدُهُ تَسليَةً، وفيها تَخَلُّصٌ إلى أنَّ ما لَقيَهُ مِن قَومِه نَظيرُ ما لَقيَهُ عيسَى مِن بَني إسرائيلَ"[1].

طبيعةُ الإسنادِ في ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾:

الإسنادُ اللَّفظيُّ مقابلٌ للإسنادِ المَعنويِّ

أسندَ النَّظمُ الكريمُ ﴿أَحْمَدُ﴾ إلى ﴿ٱسْمُهُۥٓ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، وهذا من الإسناد اللَّفظيِّ دونَ المعنويِّ، قال ابنُ عطيَّة: "وهو في هذه الآيةِ الكلمةُ لا الشَّخصُ، وليستْ على حدِّ قولِك: (جاءنا أحمدُ)؛ لأنَّك هاهنا أوقعتَ الاسمَ على مُسمّاه، وفي الآية إنَّما أراد: ﴿ٱسْمُهُۥ﴾ هذه الكلمة"[2].

معنى (الفاءِ) ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا﴾:

التَّسبُّبُ والتَّعقيبُ نتيجةٌ لكلِّ خبرٍ مُهِمٍّ عَجيب

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء)، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ والتَّسبُّبِ عن كونِه رسولَ الله إليهم، أو للدَّلالةِ على التَّسبُّبِ والتَّعقيب؛ لكونِ المبشَّرِ به رسولًا يأتي مِن بعده؛ إذِ الإخبارُ برسوليَّتِه لبني إسرائيلَ خبرٌ مهمٌّ عظيم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 186.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 303.

وتبشيرُه برسولٍ مِن بعدِه حدثٌ عجيبٌ، لا بدَّ من أن تتسبَّبَ عنهما نتيجةٌ وموقفٌ.

معنى (لمّا) ودلالتُها:

المُسارعةُ إلى التَّكذيب يدلُّ على جهلٍ عجيب

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(لمّا)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟﴾؛ للدَّلالة على الشَّرطيَّة الظَّرفيَّة الحينيَّة، وتفيدُ تعليقَ حصولِ مَضمونِ جَوابها بحصولِ مَضمونِ شَرْطِها، وفيها دلالةٌ على المُسارعة إلى التَّكذيبِ، فيكونُ قولُهم بأنَّه: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ عقيبَ مجيئِه بالآياتِ البيِّنات من دونِ تخلُّلِ تفكيرٍ أو نظرٍ أو تدبُّرٍ في دلالةِ تلك الآيات ومَعانيها.

دلالةُ العُدولِ عن (الإيتاءِ) إلى (المجيء):

صعوبةُ المعجزات تقتضي صُعوبةَ الكلماتِ

عدلَ النَّظمُ الكريم عن فعلِ (الإيتاء) إلى فعلِ (المجيءِ)، في قولِه تعالى: ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ للتَّفرقةِ بينَ إتيانِه إليهم ومَجيئِه بالآيات البيِّنات؛ لأنَّ الإتيان أمرٌ ميسورٌ له؛ إذ بمُجرَّدِ اصطفاءِ اللّٰه له يأتي، ويُقبِلُ إليهم بكلِّ يُسْرٍ وسُهولة، لكنَّ تقديمَهُ للآيات يحتاجُ إلى فعلِ اللّٰه تعالى؛ ليُثبِتَ صِدقَهُ ونبوَّتَه، فيكونُ المجيءُ بالآيات أمرًا مَعسورًا؛ لتوقُّفِه على الحكمةِ الإلهيَّة، التي تختارُ الوقتَ المناسب والمكانَ المناسِب ممّا لا يُحاطُ به عِلْمًا، فناسبَ التَّعبيرُ بلفظِ المجيءِ، ويحتملُ أنَّ صعوبةَ الإتيانِ بالأمرِ الخارقِ عادةً يَقتضي في النَّظمِ لفظًا دالًّا على صُعوبةِ الإيجادِ له، كما أنَّ اختيارَ الفعلِ الماضي دالٌّ على تحقُّقِ ذلك المجيءِ وحصولِه، ويحتملُ أنَّ فعلَ المجيءِ مستعارٌ لدعوى النُّبوَّة؛ إذ دَعوى النُّبوَّةِ كالمَجيء.

الاختلافُ في مَرجع ضميرَي الرَّفعِ والنَّصب:

اختلف المفسِّرون في تحديد مرجع ضميرَي الرَّفع والنَّصب، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أهو عائدٌ إلى عيسى

أثرُ تحديدِ مَرجِعِ الضَّمير في التَّسويةِ في المَصير

ابنِ مريمَ عليه السلام؟ أمْ هو عائدٌ إلى النبيِّ الكريم ﷺ؟ قال ابنُ عطيَّة: "يحتملُ أن يريدَ (عيسَى)، وتكونَ الآيةُ وما بعدَها تمثيلًا بأولئك لهؤلاءِ المعاصِرينَ لمحمَّد ﷺ، ويحتملُ أنْ يكون التمثيلُ قد فرغَ عندَ قولِه: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، ثمَّ خرجَ إلى ذكر أحْمَدَ لمّا تطرَّق ذكره، فقال مخاطبًا المؤمنين: فَلَمّا جاءَ أحمدُ هؤلاءِ الكفّارَ؛ قالوا"[1]، والظّاهرُ أنَّه يَحتملُهما، ولا مانعَ من أنْ يكونَ مُستعمَلًا فيهما معًا، قال ابن عاشور: "فَإنَّ المُتَبادِرَ أن يَعودَ ضَميرُ الرَّفْعِ في قوله: ﴿جَآءَهُم﴾ إلَى عيسَى، وأن يَعودَ ضَميرُ النَّصبِ إلَى الَّذينَ خاطَبَهُم عيسَى، والتَّقديرُ: فَكَذَّبوهُ، فَلَمّا جاءَهُم بِالمُعْجِزاتِ؛ قالوا: هَذا سِحرٌ، أو هو ساحِرٌ، ويُحْتَمَلُ أن يَكونَ ضَميرُ الرَّفْعِ عائِدًا إلَى ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾، وضَميرُ النَّصبِ عائِدًا إلَى لَفظِ بَني إسرائيلَ، أي: فَلَمّا جاءَهُمُ الرَّسولُ الَّذي دَعاهُ عيسَى بِاسْمِ أحمَدَ بِالبَيِّناتِ، أي: دَلائِلِ انطِباقِ الصِّفاتِ المَوْعودِ بِها، قالوا: هَذا سِحْرٌ، أوْ هَذا ساحِرٌ مُبينٌ، فَيَكون هَذا التَّركيب مِن قَبيلِ الكلامِ الموجَّهِ، وحَصَلَ أذاهُم بِهَذا القَوْلِ لِكِلا الرَّسولَيْنِ، فالجُمْلَةُ على هَذا الاحتِمالِ تُحْمَلُ على أنَّها اعتِراضٌ بَينَ المُتَعاطِفاتِ، ومُمَهِّدَةٌ لِلتَّخَلُّصِ إلَى مَذَمَّةِ المُشْرِكينَ وغَيرِهِم، مِمَّن لم يَقبَلْ دَعوةَ مُحَمَّد ﷺ"[2].

مَعنى (الباءِ) ودلالتُها في ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

اقترانُ البيِّناتِ بدَعْوى النُّبوّات

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بباء الجرِّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ إمّا للدَّلالة على التَّعديةِ، أو للدَّلالة على المُصاحَبةِ والمعيَّة[3]، فتكونُ (الباءُ) متعلِّقةً بحالٍ محذوفةٍ، أي: مُلتبِسًا المجيءُ إليهم بالبيِّنات؛ دلالةً على مُصاحبةِ الآيات البيِّنات لمجيئِه إليهم،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 303.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 187.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 256.

وإنْ كان المجيءُ بمعنى ادِّعاءِ النُّبوَّة؛ فيكونُ مُلتبِسًا ذلك الادِّعاءُ بالبيِّنات والمعجزات؛ لأنَّ النَّبيَّ الصّادقَ يتميَّزُ عن المتنبّي الكاذبِ بإظهار البيِّنة مقرونةً بدَعوى النُّبوَّة.

دلالةُ جمعِ (البيِّنات) ومجازيَّتِها:

تسميةُ الآياتِ بالبيِّنات من التَّسميةِ باللُّزوميّات

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن المعجزاتِ بجمعِ المؤنَّث السّالم، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآياتِ البيِّنات الظّاهراتِ الواضِحات، الدّالَّةِ على أنَّه نبيٌّ ورسول، وإنَّما جُمِعت كذلك؛ للدَّلالةِ على أنَّها قليلةٌ نسبيًّا، لكنْ على قلَّتها فهي بيِّنةٌ ظاهرةٌ واضحةٌ، فيكونُ العدولُ عن الآياتِ إلى البيِّنات؛ لجبرِ القِلَّةِ العدديَّة بالقيمةِ النَّوعيَّة، وتسميةُ الآيات والمعجزاتِ بالبيِّنات مجازٌ مرسَلٌ، من تسميةِ الشَّيء باسمِ وصفِه اللّازمِ له، فالعلاقةُ لزوميَّةٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ (القول) ماضيًا:

أقوالُ الأنبياء لطفٌ واستعطاف، وأقوالُ المُكذِّبين تهجُّمٌ وجَفاف

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (القولِ) ماضيًا ومُسنَدًا إلى (واو) الجماعةِ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على صُدورِ القولِ منهم، وتحقُّقِ وقوعِه بمُجرَّدِ تقديمِ الآياتِ والبيِّنات "عندَ مَجيئِها، سواءٌ من غيرِ نظرةٍ لتأمُّلٍ ولا غيرِه"[1]، وليكونَ قولُهم التَّكذيبيُّ التَّهجُّميُّ مُقابِلًا لقولِه الصّادقِ المُستعطِفِ صدرَ الآيةِ؛ إظهارًا للطِّباق بينَ القولين والتَّبايُنِ بينَ الموقفين، وأسندَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ إلى الجماعةِ؛ لبيانِ أنَّ تكذيبَهم له واتِّهامَهم إيّاه على سبيلِ الاجتماعِ والتَّوافُق، وقد اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ مرجعِ ضميرِ (الواو)؛ أهو عائدٌ إلى بني إسرائيلَ في تكذيبِهم لعيسى ابنِ مَريم ورسالتِه، أم هو عائدٌ إلى مُشركي العربِ ومَن تابعهم في تكذيبِهم لرسولِ الله ﷺ؟ والظّاهر أنَّه يحتملُ الاثنين، كما تقدَّمَ في تفسيرِ ضميرِ قوله: ﴿جَآءَهُم﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 28.

موقعُ جملةِ: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

تعنُّتُ الجاحدين على سبيلِ الدَّوامِ والثُّبوتِ التّامَّين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الاسميَّة الواقعةِ في محلِّ النَّصب مقولَ القولِ، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تعنُّتِهم وجُحودهم الثّابتِ الدّائم، وتكذيبِهم للآياتِ بمقولةٍ وقعَ الحُكم فيها على سبيلِ الدَّوامِ والثُّبوتِ التّامَّين[1].

مَرجِعُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ ودلالتُهُ:

التَّقليلُ مِن شأنِ الآياتِ استكبارٌ وتهكُّمٌ بالواضِحات

عبَّر النَّظمُ الكريمُ باسمِ الإشارة الموضوعِ للقريبِ، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ البيِّناتِ الَّتي جاءَهم بها سحرٌ وتمويهٌ وخِداع ظاهرٌ، وإنَّما عبَّر عن (البيِّنات)، وهي مؤنَّثة باسمِ الإشارة المذكَّر ﴿هَٰذَا﴾؛ إمّا لكونها مجازيَّةَ التَّأنيثِ، أو مراعاةً للخبر ﴿سِحْرٌ﴾، أو أنَّ المرجع هو المصدرُ المفهومُ من قوله: ﴿جَآءَهُم﴾ بتقدير: (المجيءُ بالبيِّنات سِحْرٌ)[2]، ويحتملُ أيضًا أن يكونَ مَرجِعُ اسمِ الإشارة: الآتيَ بالبيِّنات، كما دلَّت عليه قراءة حمزة والكسائيِّ وخَلَف: (ساحر)[3].

وفي التَّعبير باسم الإشارة للقريبِ؛ دلالةٌ على الاستخفافِ والتَّهكُّم والتَّصغير مِن شأنِ تلك الآياتِ العظيمةِ الباهِرة، وفي الإشارةِ إلى القريبِ - بعدَ الإشارة بـ(فاءِ) التَّعقُّبِ - إشارةٌ إلى شِدَّةِ اتِّصال الكفر بأوَّل أوقاتِ المَجيء[4].

دلالةُ الخبرِ ﴿سِحْرٌ﴾ صيغةً ومادَّةً:

نسبةُ الآياتِ للسِّحر صورةٌ للخِداعِ والمكْر

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالخبرِ ﴿سِحْرٌ﴾ مَصدرًا، في قولِه: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ حقيقةَ السِّحر وماهيّتَهُ تمثَّلتْ في

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 113.
(2) السّيوطيّ، تفسير الجلالين، ص: 739.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 28.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 28.

ذلك الصَّنيعِ؛ مبالغةً في الطَّعنِ والتَّشكيك، وأفادَ (السّحرُ) دلالةَ المُخادعةِ والتَّمويه وخِداعِ العين برؤيةِ الأشياءِ الخياليَّة حتّى يُعتقدَ أنَّها أمورٌ واقعيَّةٌ حقيقيَّة، قال الماتريديُّ: "وهذا يدلُّ على أنَّه جاءَهم بالآياتِ المعجزةِ؛ حيثُ نسبوهُ إلى السِّحر"[1].

تنوُّعُ القِراءات في ﴿سِحْرٌ﴾:

أثرُ القراءاتِ في تنوُّعِ الدَّلالات

قرأ الجمهور: ﴿سِحْرٌ﴾، من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾، أي: ما جاءَ به من البيِّنات سِحْرٌ، فتكونُ المبالغةُ في تسميةِ البيِّنات بالسِّحر، مع أنَّها أثَرُ السِّحر وناتجُهُ، لكنَّه جعلَها نفسَ السِّحرِ مُبالغةً، في حين قرأ حمزةُ، والكسائيُّ، وخَلَف العاشر: ﴿سَٰحِرٌ﴾، أي: هذا الجائي ساحِرٌ"[2]، وهذا إسنادٌ حقيقيٌّ لا مبالغةَ فيه، لكن فيه تهجُّمٌ على ذاتِ النَّبيِّ الَّذي أتى بالبيِّنات، وتتحقَّقُ المبالغةُ بشكلٍ ظاهرٍ لو كان مَرجِعُ اسمِ الإشارة هو النَّبيَّ، والإخبارُ عنه بأنَّه سِحْرٌ، وفيه حينَئذٍ مجازٌ عقليٌّ، من قبيلِ: جدَّ جِدُّه.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿مُّبِينٌ﴾:

من شدَّةِ الإساءة وصفُ الآياتِ بالسِّحر ذي الإبانة

وصفَ النَّظمُ الكريمُ السِّحرَ بـ(المبين)، في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالة على الظُّهورِ والوضوح؛ ليكونَ اتِّهامُهم للآياتِ بالسِّحر المُبين مُقابلًا لوصفِ الآياتِ أو تسميتِها بالبيِّنات، و﴿مُّبِينٌ﴾ اسمُ فاعلٍ مُشتقٌّ من الإبانةِ والبيان، ويشتملُ على ضميرِ (السّحر)، وفي نسبةِ النَّظمِ الكريمِ الإبانةَ والحديثَ إلى (السِّحر) إشارةٌ إلى استعارةٍ مكنيَّةٍ بتشبيه السِّحر بذاتٍ متكلِّمةٍ، تُفهم كونَها سِحرًا وخِداعًا، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصِّه الإبانة؛ مبالغةً في توصيفِ الآياتِ بالخِداع، حتّى كأنَّها تتكلَّمُ، وتُبينُ عن ذلك.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 631.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 256.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيانُ والمَجيءُ:

الإتيان أوّلُ المجيءِ، وهو أعمُّ مطلقًا منه وأيسرُ

يُطلَقُ (الإتيان) على أوَّلِ التَّحرُّكِ والقدومِ نحو الهدفِ والمكانِ المقصود، فيقولُ القائل: (أتيتُك)، أي: شَرَعْتُ في القدوم إليك، في حين أنَّ (المجيءَ) يكونُ عند الوصولِ إلى المقصَد، كما أنَّ كلَّ مجيءٍ هو إتيانٌ؛ إذ يستلزمُ المجيءُ الشُّروعَ في الإقبال، وليس كلُّ إتيانٍ مَجيئًا، ولذا وقعَ في قولِه: ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى﴾ بالإتيان، أي: هو قادمٌ إليكم ولمّا يصلْ بعدُ، وبعضُهم فرَّق بينَهما باليُسر والصُّعوبة، فالإتيانُ قدومٌ بكلِّ يُسْرٍ وسُهولةٍ، والمَجيءُ يكونُ بصُعوبة، ومِن ثَمَّ عبَّر النَّظمُ في الآيةِ عن حركةِ الرَّسول بالإتيان، وعبَّرَ عن المعجزات بالمَجيءِ؛ لتوقُّفِها على خَلْقِ المَوْلى لها.

التَّبشير والإخبار:

التَّبشيرُ أخصُّ مُطلقًا من الإخبار

التَّبشيرُ هو الإخبارُ المقيَّدُ بما يُسِرُّ، ويُفرحُ النَّفْسَ والقلبَ، وأمّا الإخبار؛ فإنَّه يشملُ التَّحديثَ بالخبرِ السّارِّ والمُحزِن، فكلُّ تبشيرٍ هو إخبارٌ، ولا يَنعكِسُ كلّيًّا.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"